في فن الحرب

من حرب الخنادق إلى حرب الحركة

للأستاذ « ذ . ص »

قال برنارد شو :

« إن صنعة الحرب تنحصر في الهجوم بقسوة المتضعف على من هو أقل منك عدداً وعدة ، وفي الهرب من لقاء الند . والسر في النجاح الحربي هو أن تتحايل على الخصم : تنصب له الفخاخ وتمد له الأحابيل ؛ فإذا تعثر أو كبا ، انقضضت عليه بلا شفقة انقضاض الغادر . ولكن إياك إياك من مجابهته وهو منتصب على قدم الاستعداد ! »

كلمات لاذعة ساخرة ... ولكنها من صلب الحقيقة . القائد الناجح هو ذلك الذي يخادع ثم يقاتل ، ويراوغ ويخاتل ثم ينقض بتلك الأساليب الملتوية ، والحيل الماكرة ، والطرق المتعرجة المنثنية ، حيث الدهاء والفطنة متآلفان ، والخبث والذكاء متعاونان

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، وانتقل ذلك الفن العريق من أفقه الشاسع الفسيح ، أو قل من جحيمه العميق ، إلى حيز ضيق محدود : فالتجنيد الإجباري قد أعطى الدول المقدرة على تغطية كل شبر من أراضيها المتاخمة لحدود الأعداء ، فأصبحت الجيوش متجابهة ، ولزم عليها صراع الخصم صراع الندّ للند ، والقريعَ للقريع ، كما حدث في الميدان الغربي أثناء الحرب الماضية .

تضاءل مجال مناورات الاستراتيك[1] ، ولم يجد القواد فرصة للالتفاف حول الأجناب ، وليس هناك أجناب ، وحاروا في كيفية الإغارة على المؤخرات ، دون الاضطرار إلى اختراق الواجهات ، بل وكيف يكون الاختراق وقد أعطت الأسلحة الآلية التفوق المطلق لمواقع الدفاع ؟

إن الحرب بأساليبها وخططها ورجالها وعدتها ترتكز على ركنين أساسيين : قوة النيران[1] ، وسرعة الحركة . وما الهجوم إلا الحركة صوب العدو ، وما الدفاع إلا محاولة وقف تلك الحركة بالنيران المحكمة التصويب . وهذه الأخيرة هي التي كانت أسبق إلى التحرر من قيود الطاقة البشرية ، حين تحوّلت إلى قوى الطبيعة تستمد منها القدرة على الفتك ، فلم تعد السواعد هي التي تلوّح بالرماح أو تطعن بالسيوف ، بل أصبحت المفرقعات هي قوتها الدافعة ، بل وزادت على ذلك وأدّت إلى اختراع السلاح الآلي السريع الطلقات الذي طفر بمقدرة الدفاع إلى الأمام طفرات هائلة . فمنذ قرن مضى وقف ولنجتون أمام وترلو يصد هجمات نابليون العنيفة ، وقد رصّ رجاله رصًّا ، وتعلق مصير أوربا بمقدرته على وقف جيوش الأمبراطور ، حتى يلحق به بلوخر ، لحظات معدودات أُطلقت خلالها الكتائب البريطانية النيران بمعدل ألفي رصاصة في الدقيقة الواحدة لكل كتيبة (أورطة) ، ولو كان الزمان انتقل فجأة بولنجتون إلى عهد السلاح الآلي ، لأمكنه استبدال كل كتيبة من كتائبه برجالها وبنادقها وقائدها وضباطها بثلاثة جنود خلف ثلاثة رشاشات ، ليحصد نابليون حصداً ويشتته تشتيتاً

هذا في حين أن الهجوم ظل يعتمد على الطاقتين : البشرية والحيوانية . وكانت تعبئة الجيوش تتم حقيقة بقوة البخار على خطوط الحديد ، ولكنه أثناء تلك اللحظات الحاسمة التي ترفرف على الميدان خلال القتال ، ظلت الحركة هي هي كما كانت أيام هنيبال : أدواتها أقدام بني الإنسان على الدوام ، تعاونها ظهور الجياد في بعض الأحيان

زادت إذن قوة الدفاع أضعاف الأضعاف ، فكانت النتيجة الحتمية شلّ كل هجوم ، وتثبيت الخطوط ، وتحويل الحروب من ميدان البراعة والفن ، إلى التطاحن المنهك الممل ، والحصر الاقتصادي الطويل

---

(١) « الاستراتيك » : هي الحركات التي بها يجبر العدو على ملاقاتك في أرض أنت تختارها ، تكون فيها ملائمة كل الملائمة ؛ أما « التكتيك » : فهي التحركات التي يجريها الجيش فوق أرض المعركة نفسها أثناء القتال أو للاستعداد المباشر له

(١) قوة النيران اصطلاح عسكري يقصد منه المقدرة على إصابة العدو سواء أكان ذلك بحراب الأسكندر وسيوف قيصر ، أم بشظايا القنابل وجراثيم الأمراض

لم تعد المركة موضع حسم النزاع ولا الجنود هى العامل الفعال ، بل انتقل الزمام إلى مقدرة المدنيين على الاحتمال ومهارة ربات المنازل فى الاقتصاد من مستلزمات الحياة — أكان سيأتى الوقت الذى يحل فيه التدبير المنزلى محل التدريب العسكرى ، وتكتفى الدول بخطوط « ماجينوية » أو « سيجفريدية » مجهزة بالمقاعد الوثيرة ولوحات التليفزيون ، يضطجع بداخلها الجندى فى دعة وتراخ ، فإذا لمع مصباح من المصابيح وجه الرجل عينيه إلى شاشة مخصوصة ، ثم ضغط على زر معلوم ، فتنطلق من أعلى الحصن عدة طلقات ، يكون فيها إسكات المهاجمين وعودة المدافعين إلى النوم الهنيء والسبات العميق ؟

ذاك ما تخيلته بعض العقول العسكرية وخاصة الفرنسية منها فأقامت خط ماجينو ، ولكن هناك آخرون كان لهم فى التفكير مذهب جد مختلف ، فقد احتفظوا فى ذاكرتهم ببعض تفاصيل الحرب الماضية ، من تلك التى كان لها تأثيرات شديدة ، ولو أنها لم تكن نسبياً إلا نتائج محدودة لجهود محدود ، كحدّه أول مرة قلة الأدوات وصغر المكان ، وفى الأخرى تخلف الزمان عن التفتح لاستثمار عبقرية ظهرت قبل الأوان

أول هذين الحدثين استعمال الطاقة الميكانيكية[1] فى ميدان المعركة ، عند ما هجم البريطانيون فى نوفمبر ١٩١٧ ببضع عشرة دبابة ، فانكسر الخط الألمانى ؛ ولكن دهشة الإنجليز أنفسهم وعدم وجود الاحتياطى الكافى عاقهم عن استغلال ذلك النجاح المباغت

وثانيهما تفتّحت عنه عبقرية لودندرف من طرائق للهجوم جديدة — وهو من أبناء المدرسة الألمانية المتشبعة بروح الهجوم — والهجوم الناجح يتطلب المناورة والالتفاف وكما ذكرنا آنفاً : لم يكن هناك أجناب ، فما العمل إذن ؟ أيستسلم لودندرف ويرضى بالحال ؟ كلا فهذا من المحال . إنه يريد الهجوم ، يريد إحراز نتيجة إيجابية بأى ثمن كان ، إذن — فلتخلق الجيوش الأعداء أجناب ! ... يبتكر لودندرف وينفذ نظريته الجديدة : نظرية التسلل ؛ وهى إرسال بعض الجنود يتسللون مواطن الضعف فى خطوط الأعداء حتى إذا وجدوها تسللوا خلالها وأحدثوا بها ثغرة أو ثغرات ، فيها يُجرى الحشد الجديد ، ومنها يكون الالتفاف والتطويق والهجوم وحسم النزاع

صادف لودندرف بعض النجاح ، ولكن حركات الجنود تظل فى الميدان بطيئة ، فيتنبه لها الدفاع قبل الاستفحال ؛ ويسارع إليها بالنيران يصليها وبالفتك الذريع يرميها ، فتنبطح للتستر وتعود إلى الثبات ، أو ربما تذعر وتولى ، فتكون الهزيمة والفرار .

ويجلس القائد الألمانى بعد الحرب بسنين ، وفى قلبه حسرة وبقلمه رعشة ، ويقرر حزيناً كئيباً : « إن مناوراتى الأستراتيكية خذلتها تقائض التكتيك »

ولكن نظرياته لا تنسى ولا تزول ، بل تنزوى حية فى بعض العقول ، حتى يخلق لها الجو الملائم فتعود إلى الظهور ؛ وتنشر هنا وهناك بعض المؤلفات تهيىء لها الجو ، إن عفواً وإن قصداً ، أهمها « نحو الجيوش المحترفة » للجنرال ديجول عام ١٩٣٤ ، ثم « حرب الدبابات » للجنرال إيتزبرج النمسوى . وأخيراً كتاب جودريان[1] الفذ : « حذار ! ... إنها الدراعات » عام ١٩٣٨

تنبهت القيادة الألمانية لمميزات الدبابات ، ورأت أنها هى ، وهى وحدها ، الكفيلة بمضاعفة سرعة الجيوش فى ميادين القتال ، بل وإلى جعلها قادرة على إدماج الضرب مع الحركة ، فمن قبل كان الجندى المهاجم يقف عن الحركة ليطلق النيران ، ثم يكف عن إطلاقها إذ عاد إلى الحركة ، وهذا مضيعة للوقت وأى مضيعة ، وإعاقة للتقدم وأى إعاقة ! وهكذا قدر للهجوم أن يعود إلى عرشه المفقود ، فينقلب ثبات المدافعين إلى جمود الحائرين ، ثم إلى خنوع المستسلمين .

(ذ . ص)

(١) كنت أود استبدال كلمة « ميكانيكية » بلفظ آخر ، ولكنى لاحظت أن أقرب لفظ عربى إلى المعنى المطلوب « آلية » يؤدى ، فى الأوساط العسكرية ، معنى آخر جديد : Automatic

(١) الجنرال جودريان الألمانى الذى قاد دبابات المرشال فون بوك سنة ١٩٤١ ، فى القطاع الأوسط من الميدان الروسى